



بعض المدن في هذا العالم الواسع تتعدي التعريف التقليدي للمدينة كتجمع بشري وحسب، بل تتجاوز ذلك لتكون سجلاً روحيأً وفكرياً وتاريخياً للإنسان. وتعدو هذه المدن مدرسة ملهمة لأبنائها، والذين يتلمسون في ثنايا أحجارها وحواريها القديمة نكهة الماضي بحلوه ومره، ويستشرفون رسم مستقبلهم من تجاربها الوافرة.

هكذا كانت حلب الشهباء لي، مدينتي التي أنتسب إليها وإلى قلب مدينتها القديمة على وجه التخصيص. في أزقتها الضيقة ومن شرفات قلعتها ومن رائحة التوابل العبة المنبعثة من أسواقها، نسجت أول خيوط اهتمامي بالتاريخ والجوانب الحضارية للإنسان.

حلب، المدينة الأكبر في بلاد الشام وسوريا، نشأت على ملتقى طرق تجارية في قلب الشرق الأوسط حيث مهد الحضارة الإنسانية. تقع شمال غرب سوريا على بعد 310 كم من دمشق. تمنح الكثير من الدراسات مدينة حلب لقب المدينة الأقدم في التاريخ. إذ يعود تاريخ الاستيطان البشري فيها إلى ستة آلاف عام قبل الميلاد. وقد بينت دراسات متقدمة على أن تجمعات بشرية أقامت مخيمات لها في منطقة حلب قبل ذلك حتى بخمسة آلاف عام.

هذه الأرقام تجعل حلب أقدم تجمع بشري معروف، تسبق في ذلك حتى تأوها دمشق التي تعد أقدم عواصم الدنيا، ويرد ذكرها قبل بناء أهرامات الجيزة وظهور سلالات الفراعنة بفترة طويلة.

تعاقبت على حلب منذ ذلك الزمن السحيق حضارات وعهود مختلفة. كانت عاصمة لمملكة يمحاض التي ازدهرت قبل ما يقرب من أربعة آلاف عام. ومنذ ذلك الوقت تبين أن لحلب دوراً سياسياً واستراتيجياً في المنطقة وأصبحت محط نظر وموقع تأثير في الشرق الأوسط.

توالت على حلب ثقافات مختلفة، وأصبحت لاحقاً محل المد والجزر بين القوى المتصارعة على النفوذ في الشرق الأوسط بموقعها المتميز على طريق الحرير. فشهدت المدينة حكماً فارسياً وهيلينياً ورومانياً، إلى أن وصل إليها مد الفتح الإسلامي في بداية القرن السادس الميلادي. حين دخلها المسلمون بقيادة الصحابي أبي عبيدة بن الجراح فاتحين سنة 637 للميلاد. ومنذ ذلك الحين بدأ يكبر دور حلب ويتسع أثره، إذ أصبحت كبرى المدن الإسلامية في شمال دولة الإسلام الناشئة، وقاعدة الثغور الكبرى على خطوط التماس مع الإمبراطورية البيزنطية، وتواصل ذلك خلال العهدين الأموي والعباسي.

كان القرن العاشر للميلاد مفصلاً لحلب ودورها الإقليمي حين أصبحت عاصمة ومقر ملك الدولة الحمدانية. وأطلقت المدينة العنان لازدهار تجاري وثقافي كبيرين. فغدا بلاط حلب محل الأدباء والشعراء والعلماء. يكفي لنا أن نعلم بأن بلاطها كان منصة نزال شعرية بين المتنبي وأبي فراس الحمداني وغيرهم من جهابذة الشعر العربي. كما نبغ من أبنائها علماء كثروا للنساء دور في الحركة العلمية. ومن بين الأسماء اللامعة كانت مريم الإسطرلابي، التي اخترعـت الإسطرلاب المعدـ وهو ما يشبه نظام الملاحة العالمية في أيامنا.

تنامي دور حلـب السياسي وأصبح رئيـسـياً جـداً مع اكتـسـاحـ الحـمـلـاتـ الصـلـيـبـيـةـ لـبـلـادـ الشـامـ فيـ نـهـاـيـةـ الـقـرـنـ الـحـادـيـ عـشـرـ للـمـيـلـادـ.ـ وـتـعـرـضـتـ الـمـدـيـنـةـ لـحـصـارـ صـلـيـبـيـ عـنـيفـ مـرـتـيـنـ إـلـاـ أـنـ الصـلـيـبـيـنـ فـشـلـوـ فـيـ دـخـولـهـاـ.ـ وـمـنـذـ ذـلـكـ الـوقـتـ تـبـيـنـ أـنـهـاـ قـاعـدـةـ لـصـدـ الـحـمـلـاتـ الصـلـيـبـيـةـ وـدـحـرـهـاـ عـنـ الـمـشـرـقـ.ـ حـيـثـ اـنـطـلـقـ مـنـهـاـ الـزـنـكـيـ بـقـيـادـةـ الـأـتـابـكـ عـمـادـ الـدـيـنـ لـيـحـرـرـوـ أـوـلـ إـمـارـةـ صـلـيـبـيـةـ وـهـيـ الـرـهـاـ.ـ ثـمـ جـاءـ بـعـدـ الـمـلـكـ الـعـادـلـ نـورـ الـدـيـنـ زـنـكـيـ لـيـوـحـدـ مـنـهـاـ الشـامـ وـيـمـدـ الـعـونـ لـمـصـرـ.

وـكـانـ حلـبـ الـمـحـطـةـ الـأـخـيـرـةـ لـصـلـاحـ الـدـيـنـ قـبـلـ اـنـتـصـارـ حـطـيـنـ التـارـيـخـيـ لـيـوـحـدـ الشـامـ وـمـصـرـ بـالـكـامـلـ وـيـتـرـغـ لـلـمـعـرـكـةـ حـتـىـ قـالـ فـيـهـاـ الشـاعـرـ:

**وـفـتـحـ حـلـبـ الشـهـبـاءـ فـيـ صـفـرـ ...ـ قـضـىـ لـكـ بـافـتـاحـ الـقـدـسـ فـيـ رـجـبـ**

ازدهرت حـرـكـةـ الـعـمـرـانـ وـالـتـجـارـةـ فـيـ عـهـدـ الـأـيـوـبـيـنـ فـيـ حلـبـ.ـ بـدـأـ أـوـلـ تـوـاـصـلـ رـسـمـيـ تـجـارـيـ بـيـنـ أـورـبـاـ وـالـشـرـقـ بـقـنـصـلـيـةـ الـبـنـدـقـيـةـ فـيـ حلـبـ عـامـ 1208ـ لـلـمـيـلـادـ.ـ وـزـادـتـ الـوـتـيـرـةـ بـشـكـلـ أـكـبـرـ فـيـ عـهـدـ الـمـمـالـيـكـ،ـ الـذـيـنـ عـاـشـتـ حلـبـ فـيـ أـيـامـهـ دـورـاـ عـظـيـمـاـ لـإـدـارـةـ الـتـجـارـةـ فـيـ الشـرـقـ.ـ فـأـصـبـحـتـ الـمـدـيـنـةـ قـبـلـةـ الـتـجـارـ الـأـوـرـبـيـنـ مـنـ الـبـنـدـقـيـةـ وـفـلـوـرـنـسـاـ وـجـنـوـيـ وـقـبـرـصـ وـغـيـرـهـاـ.ـ وـقـدـ شـهـدـ الـعـهـدـانـ الـأـيـوـبـيـ وـالـمـمـالـيـكـ كـارـثـةـ عـظـيـمـاـ لـحـقـتـ بـالـمـشـرـقـ الـإـسـلـامـيـ.ـ حـيـثـ تـعـرـضـتـ حلـبـ لـغـزوـ التـارـ عـدـةـ مـرـاتـ كـانـ أـوـلـهـاـ بـقـيـادـةـ السـفـاحـ الشـهـيـرـ هـوـلـاـكـوـ خـانـ وـالـذـيـ دـمـرـ الـمـدـيـنـةـ عـنـ بـكـرـةـ أـبـيـهـاـ وـتـرـكـهـاـ أـثـرـاـ بـعـدـ عـيـنـ.ـ وـكـانـ أـخـرـهـاـ اـجـتـيـاـحـ تـيـمـورـلـنـكـ عـامـ 1400ـ لـلـمـيـلـادـ وـتـدـمـيـرـهـ الـمـدـيـنـةـ بـالـكـامـلـ وـقـتـلـ مـعـظـمـ سـكـانـهـاـ.ـ وـلـكـونـ هـذـهـ الـمـدـيـنـةـ ذـاتـ إـرـثـ تـارـيـخـيـ وـمـكـانـةـ كـبـيـرـةـ،ـ اـسـتـطـاعـتـ الـتـعـاـفـيـ بـسـرـعـةـ وـاـسـتـعـادـةـ أـلـقـهاـ وـاـهـتـمـ الـسـلـاطـيـنـ الـمـمـالـيـكـ بـإـثـرـاهـاـ بـالـمـبـانـيـ وـالـأـسـوـاقـ وـالـمـسـاجـدـ وـالـحـمـامـاتـ لـتـعـودـ إـلـىـ سـابـقـ عـهـدـهـاـ.

مع بـدـايـةـ الـقـرـنـ السـادـسـ عـشـرـ لـلـمـيـلـادـ شـهـدـتـ حلـبـ الـكـثـيرـ مـنـ التـطـورـاتـ الـكـبـرـىـ.ـ إـذـ اـنـتـقـلـتـ طـرـقـ التـجـارـةـ الـعـالـمـيـةـ مـنـ الـعـالـمـ الـإـسـلـامـيـ إـلـىـ أـيـديـ الـأـوـرـبـيـنـ.ـ وـذـلـكـ بـعـدـ أـنـ تـمـ اـكـتـشـافـ رـأـسـ الرـجـاءـ الصـالـحـ وـالـالـتـفـافـ حـولـ إـفـرـيـقـيـاـ.ـ وـالـحـدـثـ الـأـخـرـ كـانـ اـنـتـقـالـ حلـبـ إـلـىـ سـلـطـانـ الـدـوـلـةـ الـعـثـمـانـيـ الصـاعـدـةـ بـقـوـةـ،ـ وـالـتـيـ أـنـهـتـ سـلـطـةـ الـمـمـالـيـكـ فـيـ مـصـرـ وـالـشـامـ وـذـلـكـ بـيـنـ عـامـ 1516ـ 1517ـ لـلـمـيـلـادـ.

تابـعـتـ حلـبـ لـعـبـ أـكـبـرـ الـأـدـوـارـ التـجـارـيـةـ فـيـ الـعـهـدـ الـعـثـمـانـيـ وـتـزـاـيدـ عـدـ سـكـانـهـاـ بـشـكـلـ مـطـرـدـ.ـ وـغـدـتـ الـمـدـيـنـةـ الـثـالـثـةـ فـيـ الـأـهـمـيـةـ فـيـ الـدـوـلـةـ الـمـتـرـامـيـةـ الـأـطـرـافـ عـلـىـ ثـلـاثـ قـارـاتـ،ـ لـاـ يـسـبـقـهـاـ فـيـ ذـلـكـ إـلـاـ الـعـاصـمـةـ إـسـطـنـبـولـ نـفـسـهـاـ وـالـقـاهـرـةـ.ـ وـيـصـفـ الـكـثـيرـ مـنـ الـمـسـتـشـرـقـيـنـ حلـبـ فـيـ الـعـهـدـ الـعـثـمـانـيـ وـمـاـ تـتـمـيـزـ بـهـ مـنـ هـوـاءـ نـقـيـ وـنـظـافـةـ رـائـعـةـ وـأـبـنـيـةـ جـمـيـلـةـ بـيـضـاءـ مـبـنـيـةـ مـنـ حـجـرـهـاـ الـكـلـسـيـ الـمـتـوـافـرـ بـكـثـرـةـ.ـ وـلـمـ تـتـنـازـلـ حلـبـ عـنـ مـكـانـهـاـ التـجـارـيـةـ الـكـبـرـىـ إـلـاـ بـافـتـاحـ قـنـاهـ السـوـيـسـ،ـ وـالـتـيـ وـجـهـتـ ضـرـبـةـ كـبـيـرـةـ لـلـتـجـارـةـ الـبـرـيـةـ،ـ وـتـحـولـتـ الـطـرـقـ عـنـ الـمـرـورـ بـحلـبـ كـسـابـقـ عـهـدـهـاـ.

وـجـدـتـ الـمـدـيـنـةـ فـيـ الصـنـاعـةـ بـدـيـلـاـ كـبـيـراـ وـأـوـجـدـتـ حـلـأـ جـذـرـيـاـ لـتـحـولـ الـطـرـقـ التـجـارـيـةـ،ـ فـازـدـهـرـتـ صـنـاعـاتـ النـسـيجـ فـيـهـاـ وـغـدـتـ مـنـ كـبـرـىـ الـمـدـنـ الـمـصـدـرـةـ لـلـشـرـقـ الـأـوـسـطـ وـأـورـبـاـ.ـ وـبـقـيـتـ حلـبـ عـاصـمـةـ اـقـتصـادـيـةـ لـبـلـادـ الشـامـ حـتـىـ دـخـولـ الـحـلـفـاءـ إـلـيـهـاـ وـبـدـءـ

ورغم فقدان المدينة لمجالها الحيوى التجارى شمالاً بضمه لتركيا، أو غرباً بخسارة مينائها البحري في إسكندرية، إلا أنها حافظت بشكل غريب على زخمها كأكبر المدن السورية وأكثفها سكاناً وأهمها اقتصادياً. ولعل هذه الأسباب كانت عاملاً سيئاً اجتذب لها الدمار الكبير في الحرب القائمة حالياً وجعلها في وسط دوامة الصراع بين القوى المتحاربة.

[هافينغتون بوست](#)

المصادر: